النزوع التاريخي في رواية ابن زريق البغدادي الاخيرة للروائي سلام عبود
دراسة في ضوء النقد الثقافي

مدرس دكتور عذراء غالب عبد

Athraa.gh.abedhabeeb@aliraqia.edu.iq

كلية الآداب / الجامعة العراقية

The Historical Tendency in *The Last Exile of Ibn Zuraik Al-Baghdadi* by Salam Aboud: A Study in the Light of Cultural Criticism

Instructor Athraa Ghalib abd

College of Arts / Iraqia University

المستخلص

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مظاهر النزوع التاريخي في رواية (تغريبة ابن زريق البغدادي الأخيرة) للروائي سلام عبود في ضوء النقد الثقافي، من خلال تحليل البنية السردية وتمثلات التاريخ والسلطة والهوية . وتبيّن الدراسة أن الروائي يوظف التاريخ بوصفه بنية ثقافية ورمزية تسهم في تفسير الواقع العراقي المعاصر، لا باعتباره استعادة توثيقية للماضي فحسب . كما تكشف القراءة الثقافية عن حضور الأنساق المضمرة المرتبطة بالهيمنة والصراع المذهبي وعلاقة المثقف بالسلطة، مما يجعل الرواية فضاءً لإعادة مساءلة التاريخ واستنطاقه . وتخلص الدراسة إلى أن النزوع التاريخي في الرواية يمثل مشروعاً نقدياً يربط بين الذاكرة والهوية والوعي الجمعي، ويسهم في تفكيك الخطابات المهيمنة وإعادة قراءة الماضي من منظور ثقافي معاصر .

الكلمات المفتاحية:

النزوع التاريخي، النقد الثقافي، سلام عبود، الرواية العراقية، ابن زريق البغدادي، الهوية، الوعي الجمعي، التاريخ والسلطة..

Abstract

This study investigates the historical tendency in The Last Exile of Ibn Zuraik Al-Baghdadi by Salam Aboud through the perspective of cultural criticism. It examines how history is employed as a critical narrative tool to reveal issues of authority, identity, and collective consciousness in contemporary Iraqi society. The study concludes that historical representation in the novel functions as a cultural discourse that exposes structures of domination and reconstructs the relationship between the intellectual and power. The study concludes that the historical tendency in the novel constitutes a critical project that reinterprets the past from a contemporary cultural perspective.

Keywords:

Historical Tendency, Cultural Criticism, Salam Aboud, Iraqi Novel, Ibn Zuraik Baghdadi, Identity, Collective Consciousness, History and Power.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يستمد الأدب الروائي العراقي المعاصر كثيرًا من قوّته من ارتباطه بالذاكرة التاريخية وبمحاولة استنطاق الماضي بوصفه مفتاحًا لفهم الحاضر .ومن هذا المنطلق، تسعى رواية تغريبة ابن زريق البغدادي الأخيرة لسلام عبود إلى إعادة بناء العلاقة بين التاريخ والهوية الثقافية، مستثمرةً شخصيّة ابن زريق لتصوير أزمة الإنسان العراقي المعاصر الذي يواجه الانقسام والاغتراب.

تقوم هذه الدراسة على تتبّع النزوع التاريخي في هذه الرواية، أي ذلك التوجّه الواعي نحو توظيف التاريخ، لا باعتباره خلفيّة زمنية، بل بوصفه بنية رمزية تعكس تحوّلات الوعي الجمعي .وتأتي القراءة في إطار منهج النقد الثقافي الذي يهدف إلى الكشف عن الأنساق الفكرية والاجتماعية الكامنة خلف النص الأدبي، بما فيها أنماط السلطة والهيمنة والعلاقات الطائفية تسعى الدراسة إلى تحليل الكيفية التي استثمر بها سلام عبود النصّ التاريخي ليعبّر عن الواقع العراقي الراهن، وإلى فهم العلاقة الجدلية بين الوعي التاريخي والبنية الثقافية للنص .فالماضي في الرواية ليس مجرّد استدعاءٍ أو حنينٍ، بل مساحةٌ للتفكير في جذور الأزمة الراهنة إن الاعمال الروائية بالنسبة (لسلام عبود) وخاصة في روايته (تغريبة ابن زريق البغدادي) حيث نلاحظ ان المنجز التاريخي قد وظف توظيفا قصديا لتأكيد موقف سياسي حقيقي قد حصل. لذا إنّ اختيار شخصية ابن زريق ليس اختيارًا اعتباطيًا؛ فهي تمثّل الشاعر المغترب، المثقف المهمّش، والإنسان الذي ضاع بين السلطة والهوية .ومن خلال هذه الشخصية، يعيد الكاتب قراءة التاريخ بوصفه تجربة وجودية يعيشها الفرد العراقي في مواجهة القهر

السياسي والاجتماع ابان الحكم العباسي تلك الحقبة التي اثرت في المنجز الثقافي والفكري..

الإطار النظري والتحليل الثقافي

تكشف التجربة السردية في هذه الرواية عن حضورٍ متعمّدٍ للبعد التاريخي، حيث يتداخل الواقعي بالمتخيّل ليشكّلا معًا سردًا موازيًا للتاريخ الرسمي .فالروائي لا يعيد تمثيل الحدث التاريخي، بل يقدّمه برؤية جديدة تنبثق من الوعي النقدي المعاصر . إنّ التاريخ هنا ليس غايةً بحدّ ذاته، بل وسيلة لتعرية البنى السلطوية ومساءلة الخطابات التي شكّلت الوعي الجمعي) الجاسم،2017

تتعامل الرواية مع الماضي بوصفه نصًّا مفتوحًا قابلًا لإعادة التأويل، فيقدَّم المشهد العباسي لا كزمن منقضٍ، بل كمرآة لواقعٍ اجتماعيّ وسياسيٍّ متكرّر .وبهذا يحقّق النصّ ما يسمّيه النقّاد" الوعي المزدوج بالزمن"، إذ يتجاور فيه الحاضر والماضي في بنية واحدة) الشمري،2014

يمزج سلام عبود بين تقنيات السرد الواقعي والأسلوب الرمزي ليؤكد أنّ التاريخ لا يُستعاد في ذاته، بل يُعاد بناؤه من وجهة نظر ثقافية نقدية .فالكتابة التاريخية في هذا السياق ليست توثيقًا للحدث، بل فعل مقاومة ضد نسيان الوعي الجمعي) الموسوي، 2020.

وبذلك يصبح" النزوع التاريخي "في الرواية شكلًا من أشكال الوعي النقدي الذي يربط بين التجربة الفردية والتحولات الكبرى في المجتمع العراقي .فالتاريخ عند عبود ليس ماضيًا متجمّدًا، بل طاقة دلالية تستفزّ القارئ لإعادة النظر في منظومة القيم التي تحكم الواقع الراهن) عبود،.(2018

البنية السردية وتمثلات الفعل التاريخي

تُظهر رواية تغريبة ابن زريق البغدادي الأخيرة بنية سردية قائمة على التفاعل بين التاريخ والتخييل .فالسرد لا يكتفي بإعادة تصوير الوقائع، بل يمنحها أبعادًا إنسانية وفكرية جديدة، تجعل القارئ يواجه الماضي بوصفه تجربة متجددة وليست حكاية منتهية) الحيدري،.(2019

ينتقل سلام عبود في نصه بين فضاءين متقابلين :بغداد وقرطبة .غير أن هذا الانتقال لا يهدف إلى المقارنة التاريخية، بل إلى إظهار التماثل العميق بين الأزمنة، فالمكانان يعبّران عن حال الانقسام والاضطراب ذاته، وعن التنازع بين المركز والهامش في البنية السياسية والاجتماعية) العبيدي،(2016

من خلال شخصية ابن زريق، يُعيد الروائي بناء العلاقة بين المثقف والسلطة، إذ تتحول معاناة الشاعر في الغربة إلى رمز للوعي المنكسر في مجتمعٍ تحكمه الأيديولوجيا والمصالح الضيقة) عبود، .(2018 فالحدث التاريخي هنا يُعاد إنتاجه سرديًا ليكشف عن التهميش والإقصاء اللذين لازما المثقف عبر العصور) الجاسم، 2017).

يتبدى ذلك بوضوح في استعمال الأفعال الدالة على الحركة والاستمرارية مثل :تعانق، أعد، هبطت، أخذ، شرعت، وهي أفعال تحمل دلالات نفسية وزمنية مركّبة .فكل فعل منها يشير إلى صراع داخلي بين الرغبة في الخلاص والعجز عن تجاوزه، مما يعمّق البعد الإنساني للنص) الشمري،.(2014

تتحول الأفعال من مجرد وسيلة لغوية إلى آلية فكرية تُعبّر عن التحوّل من الوصف إلى الفعل، ومن المعاينة إلى المشاركة .وبهذا يغدو السرد فضاءً للتجربة الوجودية التي يعيشها الفرد أمام تكرار المأساة في التاريخ والحاضر معًا) الموسوي،.(2020

تُقدّم الرواية أيضًا توازيًا سرديًا بين مشهد الموت الغامض لابن زريق ومشهد الانهيار الحضاري في بغداد، وكأن الفرد يعيد تمثيل سقوط الأمة في ذاته .فالموت في الرواية ليس حدثًا بيولوجيًا بل فعلًا رمزيًا يعبّر عن انسداد الأفق وغياب العدالة) العبيدي، 2016).

هذا المزج بين الواقعي والرمزي يجعل من النصّ التاريخي وسيلة لتعرية الواقع المعاصر، حيث تتحول التجربة الفردية إلى شهادة على الزمن الجماعي .وبذلك تتجسد فكرة" التاريخ كذاكرة مفتوحة "التي تحاور الحاضر دون أن تنفصل عنه)حسن،.(2015

الصراع المذهبي والبنية الفكرية للنزاع في الرواية

يشكل الصراع المذهبي محورًا دلاليًا أساسيًا في رواية تغريبة ابن زريق البغدادي الأخيرة .فالروائي يوظف هذا البعد التاريخي لا بوصفه استحضارًا لماضٍ بعيد، بل باعتباره مرآة تكشف البنية الذهنية للصراع في المجتمع العراقي المعاصر) حسن، 2015).

إنَّ مقاربة عبود لهذا الصراع تتجاوز السرد التوثيقي لتصبح قراءة ثقافية للوعي الجمعي، إذ يعيد الكاتب إنتاج التاريخ ليكشف عن جذور الانقسام الطائفي، وعن آليات اشتغال السلطة في تشكيل الهوية الجمعية عبر التاريخ) العبيدي،.(2016 يستند الروائي في بناء هذا الوعي إلى رؤية نقدية تنظر إلى الماضي كمختبرٍ لفهم الحاضر .فاستدعاء الأحداث العباسية والأموية لا يهدف إلى تمجيدها أو إدانتها فحسب، بل إلى مساءلة الخطابات التي صاغت فهمنا لها، وإلى تفكيك الآليات التي كرّست التناحر المذهبي بوصفه أداة للهيمنة السياسية) الحيدري،.(2019 ومن خلال الحوار بين الشخصيات، يكشف عبود عن طبيعة العلاقة المأزومة بين

الإنسان والسلطة، حيث تتحول العقيدة إلى غطاء لتبرير السيطرة .فالشخصيات المتصارعة داخل النص تمثل أطياف المجتمع، وتُظهر كيف يُعاد إنتاج التفرقة المذهبية كلما غاب الوعي النقدي) الجاسم،(2017

وفي هذا السياق، يلتقي طرح سلام عبود مع ما تذهب إليه لندا هتشن ,Hutcheon) (1988حين ترى أن السرد التاريخي ما بعد الحداثي يعيد كتابة الماضي لتفكيك فكرة الحقيقة الأحادية .فالرواية هنا تُقارب التاريخ بوصفه نصًا متعدد الأصوات، يعكس تعدد الرؤى وتناقضها داخل المجتمع الواحد.

كما تتقاطع رؤية عبود مع ما طرحه إدوارد سعيد (Said, 1994) في تأكيده أن الخطاب الثقافي لا ينفصل عن البنية السلطوية، وأن التاريخ كثيرًا ما يُستعمل كأداة لإدامة النفوذ .وهو ما يظهر في النص عبر ربط الصراع المذهبي بالمنظومات السياسية التي تحكمت في وعي الأفراد والجماعات على مر العصور.

إنّ هذا الربط بين العقيدة والسياسة يمنح الرواية بعدًا نقديًا يتجاوز حدود الحكاية إلى تحليل بنية السلطة نفسها .فالصراع المذهبي ليس حدثًا عابرًا في الرواية، بل هو نموذج ثقافي متكرر يعبّر عن دورة القهر الاجتماعي والفكري في التاريخ العربي والإسلامي) الشمري،.(2014

وتتجلّى أهمية هذا الطرح في أنّ الروائي لا يقدّم التاريخ بوصفه نصًا مغلقًا، بل يفتحه على احتمالات القراءة والتأويل، بحيث يتحوّل النص السردي إلى مساحة حوارية بين الماضي والحاضر .فسلام عبود يكتب تاريخًا مضادًا للتاريخ الرسمي، يفضح المسكوت عنه في الوعي الجمعي، ويعيد للهوامش صوتها المغيَّب) الموسوي، 2020).

التقنيات السردية والتحليل البلاغي في الرواية

يعمل الخطاب السردي في رواية تغريبة ابن زريق البغدادي الأخيرة على كشف الأنساق الثقافية المضمرة التي تتحكم في بنية المجتمع، ولا سيما العلاقة المعقّدة بين المثقف والسلطة. فالرواية لا تقدّم الأحداث بوصفها وقائع تاريخية فحسب، بل بوصفها خطابًا ثقافيًا يفضح آليات الهيمنة التي مارستها السلطة عبر التاريخ (الغذامي ٢٠٠٠ ، ٤٥).

يتجلّى ذلك في أحد المقاطع التي تصوّر لحظة انكسار الشخصية حين يقول السارد **(عبود٢٠١٨، ص١١٢).»أنا قتلته، قتلته، ولن أغفر لنفسي... تتوسد القبر كما لو أنها تعانق شخصًا حيًا«**

يكشف هذا المقطع عن بعدٍ رمزي يتجاوز الحدث المباشر، إذ يتحول الاعتراف بالذنب إلى علامة ثقافية على شعور الإنسان بالعجز أمام منظومة السلطة التي تسحق الفرد. فالفعل «قتلته» لا يُقرأ هنا بوصفه جريمة فردية فقط، بل بوصفه نتيجة بنية اجتماعية قاهرة تدفع الإنسان إلى مواجهة ذاته في عالمٍ تحكمه علاقات القوة. ومن منظور النقد الثقافي، فإن هذا الاعتراف يمثل لحظة انكشاف للنسق المضمر الذي يجعل الفرد – بصورة غير مباشرة – جزءًا من منظومة العنف التي تنتجها السلطة.(فوكو ١٩٩٠، ص٧٨)

وفي موضع آخر من الرواية يتجلّى خطاب الهيمنة حين يصف السارد حالة المثقف المهمّش في ظل السلطة، إذ يرد في النص.

(لم يكن للشعر مكان في بلاطٍ لا يسمع إلا صليل السيوف وأصوات المتصارعين على الحكم)(عبود ٢٠١٨ ، ص١٣٢).

يعبر هذا المقطع عن صراع ثقافي بين سلطة المعرفة وسلطة القوة؛ فالمثقف، ممثلًا بشخصية ابن زريق، يجد نفسه خارج دائرة التأثير في مجتمعٍ تُدار قيمه وفق منطق الهيمنة السياسية. وبذلك يتحول الشعر – بوصفه رمزًا للوعي والمعرفة – إلى خطابٍ مهمّش في مقابل خطاب السلطة الذي يفرض حضوره عبر القوة والنفوذ. (غرامشي ١٩٧١، ص٢٠١).

كما تتجلى هيمنة السلطة في تصوير العلاقة بين الفرد والمركز السياسي، حين يشير السرد إلى شعور ابن زريق بالغربة داخل مدينته (غرامشي ١٩٧١، ص٢٠١).

»(كانت بغداد تضيق به كلما اقترب من أبواب السلطة، كأن المدينة نفسها تخشى أن يسمع الحاكم صوت شاعرٍ حزين))(عبود ٢٠١٨،ص١٥٦).

تتحول المدينة في هذا السياق إلى رمز ثقافي يعكس بنية الهيمنة؛ فالمكان ذاته يبدو خاضعًا لمنطق السلطة. ومن خلال هذه الصورة السردية يلمّح النص إلى أن السلطة لا تسيطر على المجال السياسي فحسب، بل تمتد هيمنتها إلى الفضاء الاجتماعي والثقافي، بحيث يصبح صوت المثقف خارج دائرة التأثير داخل المجتمع (يقطين ١٩٨٩، ص٦٣).

وفي سياق آخر يكشف النص آلية توظيف العقيدة في الصراع السياسي، حين يرد في أحد الحوارات.

(لم يكن الناس يتقاتلون من أجل العقيدة بقدر ما كانوا يقاتلون باسمها))(عبود ٢٠١٨ ،ص١٧٨).

يحمل هذا القول دلالة نقدية واضحة، إذ يفضح آلية توظيف الخطاب الديني في خدمة السلطة. فالصراع المذهبي في الرواية لا يظهر بوصفه خلافًا فكريًا فحسب، بل بوصفه

أداة سياسية لإدامة النفوذ والهيمنة. وبهذا المعنى يصبح الدين خطابًا تُعيد السلطة إنتاجه بما يخدم مصالحها السياسية (اركون ١٩٩٠، ص٩٢).

ومن خلال هذه المقاطع السردية يتضح أن الرواية لا تكتفي باستعادة الماضي العباسي، بل تعيد قراءته بوصفه نموذجًا ثقافيًا يكشف استمرار آليات القهر عبر الزمن. فشخصية ابن زريق تمثل المثقف الذي يجد نفسه في مواجهة منظومة سلطوية تحاول إخضاع المعرفة لسلطة السياسة.

وعليه، فإن الخطاب الروائي عند سلام عبود يعمل على تفكيك الأنساق الثقافية المضمرة التي تنتج الهيمنة، كاشفًا أن التاريخ ليس مجرد أحداث متتابعة، بل شبكة من الخطابات التي تشكّل الوعي الجمعي وتعيد إنتاج علاقات القوة داخل المجتمع.

وتتعمق هذه الدلالة في وصف شعور ابن زريق بالغربة داخل مدينته، إذ يشير السرد إلى أن:

(بغداد بدت له مدينةً لا تعرف أبناءها، كلما اقترب من أبواب السلطان شعر أن الطرق تضيق وأن الهواء يصبح أثقل))(عبود ٢٠١٨ ،ص١١٢)

تحمل هذه الصورة بعدًا رمزيًا واضحًا، إذ تتحول المدينة إلى فضاء ثقافي يعكس طبيعة السلطة المسيطرة. فالمكان هنا لا يُقدَّم بوصفه حيزًا جغرافيًا فحسب، بل بوصفه بنية رمزية خاضعة لمنطق الهيمنة. ومن خلال هذا التمثيل السردي يلمّح النص إلى أن السلطة لا تهيمن على المجال السياسي فقط، بل تمتد إلى الفضاء الاجتماعي والثقافي، بحيث يصبح وجود المثقف ذاته موضع قلق داخل بنية السلطة.

وفي مقطع آخر من الرواية يظهر الوعي النقدي بالصراع المذهبي، إذ يرد في أحد الحوارات:

(لم يكن الناس يتقاتلون من أجل العقيدة بقدر ما كانوا يتقاتلون باسمها))(عبود ٢٠١٨ ،ص١١٢).

يكشف هذا القول عن رؤية نقدية عميقة لطبيعة الصراع السياسي في التاريخ الإسلامي. فالرواية تلمّح إلى أن الخطاب الديني قد يتحول في بعض السياقات إلى أداة سياسية تستعملها السلطة لإضفاء الشرعية على صراعاتها. ومن منظور النقد الثقافي، يمكن فهم هذا المقطع بوصفه كشفًا للنسق المضمر الذي يربط بين الدين والسلطة، حيث تتحول العقيدة إلى خطاب يُعاد إنتاجه بما يخدم موازين القوة داخل المجتمع (غرامشي ١٩٧١،ص١٥٤).

وفي هذا السياق يمكن الاستفادة من مفهوم النسق الثقافي كما يطرحه عبد الله الغذامي، الذي يرى أن النصوص الأدبية تحمل في بنيتها أنساقًا ثقافية خفية تعمل على تشكيل المعنى بصورة غير مباشرة. فالرواية هنا لا تعيد تمثيل الصراع المذهبي بوصفه حدثًا تاريخيًا فحسب، بل تكشف البنية الثقافية التي تسمح بإعادة إنتاج هذا الصراع عبر الزمن (الغذامي ٢٠٠٠، ص٧٥).

كما يتجلّى حضور النسق السلطوي في تصوير العلاقة بين المثقف والمنفى، حيث تتكرر في الرواية إشارات إلى شعور ابن زريق بالاقتلاع من المكان والهوية. فالغربة في النص ليست مجرد انتقال جغرافي، بل هي تعبير رمزي عن إقصاء المثقف من المجال العام. ومن خلال هذا التمثيل تتحول الغربة إلى علامة ثقافية على العلاقة المتوترة بين المعرفة والسلطة، إذ يصبح المثقف مضطرًا إلى البحث عن فضاء بديل خارج حدود السلطة التي ترفض صوته النقدي (يقطين١٩٨٩، ص٦٧).

إن هذه التمثلات السردية تجعل من الرواية نصًا ثقافيًا يكشف آليات الهيمنة التي تتحكم في تشكيل الوعي الجمعي. فالماضي العباسي الذي تستحضره الرواية لا يظهر

بوصفه زمنًا تاريخيًا منقطعًا، بل بوصفه نموذجًا ثقافيًا يعكس استمرار الصراع بين المعرفة والسلطة في مختلف العصور (فوكو ١٩٩٠، ص٧٨).

وعلى هذا الأساس يمكن القول إن رواية تغريبة ابن زريق البغدادي الأخيرة تقدّم قراءة نقدية للتاريخ من خلال تفكيك الأنساق الثقافية التي أسهمت في إنتاج الهيمنة السياسية والاجتماعية. فالنص لا يكتفي باستعادة الماضي، بل يعيد تأويله ليكشف عن البنية العميقة للصراع بين المثقف والسلطة، وهي بنية ما تزال فاعلة في الواقع العربي المعاصر (فوكو١٩٩٠،ص٨٧).

وعليه، يمكن القول إن الخطاب السردي في رواية تغريبة ابن زريق البغدادي الأخيرة يعمل على تفكيك الأنساق الثقافية التي تحكم العلاقة بين المثقف والسلطة، كاشفًا أن الهيمنة لا تقوم فقط على القوة السياسية، بل على منظومة معقدة من الخطابات والقيم التي تسهم في تشكيل الوعي الجمعي وإعادة إنتاج السلطة داخل المجتمع (يقطين ١٩٨٩، ص٨٩).

:التحليل البلاغي ودلالاته الثقافية في الخطاب السردي

لا يقتصر الخطاب السردي في رواية تغريبة ابن زريق البغدادي الأخيرة على تقديم مضمون فكري أو تاريخي، بل يعتمد أيضًا على بنية بلاغية مكثفة تسهم في تشكيل المعنى الثقافي للنص. فاللغة في الرواية لا تعمل بوصفها وسيلة للتعبير فحسب، بل بوصفها أداة لإنتاج الدلالة وكشف الأنساق المضمرة التي تتحكم في العلاقة بين الفرد والسلطة. يتجلى ذلك في المقطع الذي يقول فيه السارد **(عبود٢٠١٨، ص١١٢).**

»أنا قتلته، قتلته، ولن أغفر لنفسي«

يلاحظ في هذا المقطع حضور أسلوب التكرار في الفعل «قتلته»، وهو تكرار يحمل وظيفة بلاغية تتجاوز التأكيد اللغوي إلى التعبير عن شدة الصدمة النفسية التي يعيشها

المتكلم. فالتكرار هنا يخلق إيقاعًا لغويًا يعكس اضطراب الذات وتشتتها، كما يكشف عن شعور عميق بالذنب. غير أن القراءة الثقافية تضيف بعدًا آخر لهذا التكرار، إذ يمكن فهمه بوصفه علامة على ضغط السلطة الرمزية التي تدفع الفرد الى محاكمة ذاته بصورة قاسية وهو ما يتقاطع مع تصور السلطة والخطاب التي تحاول تحويل السلطة الى قوة غير مرئية تؤثر في الوعي الفردي وتعيد تشكيله.

كما يظهر البعد البلاغي في الصورة التي يقدّمها النص في قوله:

(عبود٢٠١٨، ص١١٢).» تتوسد القبر كما لو أنها تعانق شخصًا حيًا«

تعتمد هذه العبارة على الصورة التشبيهية التي تجمع بين القبر والإنسان الحي، وهو تشبيه يقوم على مفارقة دلالية واضحة. فالقبر عادة يرمز إلى الموت والغياب، في حين يشير العناق إلى الحضور والحياة. ومن خلال هذا التضاد البلاغي يخلق النص صورة مأساوية تعكس عمق الفقدان. وفي المستوى الثقافي يمكن قراءة هذه الصورة بوصفها تمثيلًا رمزيًا لعلاقة الإنسان بالماضي؛ إذ يتحول القبر إلى استعارة لذاكرة تاريخية لا تزال حاضرة في وجدان المجتمع.

ويتجلى البعد البلاغي أيضًا في قول السارد.

(عبود٢٠١٨، ص١٣٤).»لم يكن للشعر مكان في بلاطٍ لا يسمع إلا صليل السيوف«

تقوم هذه العبارة على مقابلة دلالية بين الشعر والسيوف؛ فالشعر يمثل خطاب المعرفة والثقافة، بينما تمثل السيوف خطاب القوة والعنف. ويؤدي هذا التضاد البلاغي دورًا مهمًا في إبراز الصراع بين المثقف والسلطة داخل الرواية. ومن خلال هذه المقابلة يلمّح النص إلى هيمنة القوة السياسية على المجال الثقافي، وهو ما ينسجم مع مفهوم

الهيمنة الثقافية الذي طرحه Antonio Gramsci حيث تصبح السلطة قادرة على فرض منظومة قيم تجعل خطاب القوة أكثر تأثيرًا من خطاب المعرفة (غرامشي ١٩٧١، ص٢١٠).

كما تتجلى البلاغة السردية في تصوير المكان في قول النص:**(عبود ٢٠١٨ ،ص١٥٦).»كانت بغداد تضيق به كلما اقترب من أبواب السلطة«**

تعتمد هذه العبارة على الاستعارة المكانية، إذ تُمنح المدينة صفة إنسانية توحي بالضيق والاختناق. ومن خلال هذه الاستعارة يتحول المكان إلى كيان حي يعكس طبيعة السلطة المسيطرة. فالمكان هنا لا يظهر بوصفه فضاءً محايدًا، بل بوصفه جزءًا من البنية السلطوية التي تفرض حضورها على حياة الفرد. وتكشف هذه الصورة البلاغية عن العلاقة العميقة بين الفضاء المكاني والهيمنة السياسية داخل النص السردي (الجرجاني، د.ت).

وفي مقطع آخر يقول السرد:

(لم يكن الناس يتقاتلون من أجل العقيدة بقدر ما كانوا يتقاتلون باسمها) (عبود ٢٠١٨ ،ص١٧٨).

تقوم هذه العبارة على المفارقة البلاغية التي تفصل بين جوهر العقيدة واستعمالها السياسي. فالنص يميز بين القتال من أجل الإيمان الحقيقي والقتال الذي يتم تحت شعار العقيدة لتحقيق مصالح سياسية. ومن خلال هذه المفارقة يفضح النص آلية توظيف الخطاب الديني في الصراع السياسي، وهو ما يكشف عن نسق ثقافي يربط بين السلطة والخطاب الديني.

كما تعتمد الرواية على التكثيف الدلالي في تصوير تجربة الغربة التي يعيشها ابن زريق، كما في العبارة:

(عبود٢٠١٨ ،ص٢٠١)»لم تكن الغربة ابتعادًا عن المكان بقدر ما كانت ابتعادًا عن المعنى«

تكشف هذه الجملة عن استخدام بلاغي يقوم على تحويل المفهوم المادي للغربة إلى مفهوم معنوي وجودي. فالغربة هنا لا تعني مجرد الانتقال الجغرافي، بل تعني فقدان الانتماء والانسجام مع الواقع. ومن خلال هذا التحول الدلالي يعبّر النص عن الأزمة الوجودية التي يعيشها المثقف في مجتمع تحكمه السلطة السياسية.

إن هذه البنية البلاغية تسهم في تعميق البعد الثقافي للرواية، إذ تتحول الصور البلاغية إلى أدوات للكشف عن الأنساق المضمرة التي تتحكم في تشكيل الوعي الجمعي. فاللغة هنا لا تعمل بوصفها زخرفًا أسلوبيًا، بل بوصفها وسيلة لفضح العلاقات الخفية بين المعرفة والسلطة داخل المجتمع.

وعلى هذا الأساس يمكن القول إن البنية البلاغية في الرواية تؤدي دورًا أساسيًا في إنتاج المعنى الثقافي للنص، حيث تتداخل الصور والاستعارات والمفارقات مع الرؤية النقدية التي يسعى الروائي إلى تقديمها. وبذلك تتحول البلاغة السردية إلى أداة تحليلية تكشف طبيعة الصراع بين المثقف والسلطة، وتمنح النص عمقًا دلاليًا يتجاوز حدود السرد التاريخي .

تمثّلات النسق الثقافي وهيمنة التحليل البلاغي في الخطاب السردي

تكشف القراءة الثقافية لرواية تغريبة ابن زريق البغدادي الأخيرة أن الخطاب السردي لا يقتصر على إعادة تمثيل الحدث التاريخي، بل يعمل على تفكيك الأنساق الثقافية المضمرة التي تتحكم في تشكيل الوعي الجمعي. فالرواية، في ضوء منهج النقد الثقافي، تُقرأ بوصفها خطابًا يكشف العلاقة الإشكالية بين المثقف والسلطة داخل المجتمع، ويبرز آليات الهيمنة التي تمارسها البنية السياسية والاجتماعية عبر التاريخ. ومن هذا المنطلق يصبح النص الروائي مجالًا لتحليل الخطابات التي تنتج السلطة وتعيد تشكيل الوعي الفردي والجماعي. ويتجلّى هذا البعد في المقطع السردي في عبارة:

(عبود٢٠١٨، ص١١٢).»أنا قتلته، قتلته، ولن أغفر لنفسي«

يمثل التكرار في الفعل «قتلته» بنية بلاغية تعكس اضطراب الذات وشدة الشعور بالذنب. فالتكرار هنا يؤدي وظيفة إيقاعية ودلالية في آنٍ واحد، إذ يعبّر عن صدمة نفسية عميقة يعيشها المتكلم. غير أن القراءة الثقافية تكشف أن هذا الاعتراف يتجاوز المستوى الفردي ليعكس أثر السلطة الرمزية التي تدفع الفرد إلى مراقبة ذاته ومحاسبتها. وبذلك يتحول الخطاب إلى تمثيل لسلطة غير مرئية تعمل عبر تشكيل الوعي الفردي. كما يظهر البعد البلاغي في الصورة السردية (الجرجاني د.ت)

(عبود٢٠١٨ ،ص١١٢).»تتوسد القبر كما لو أنها تعانق شخصًا حيًا«

يقوم هذا التعبير على صورة تشبيهية تجمع بين دلالتين متناقضتين: القبر بوصفه رمزًا للموت، والعناق بوصفه رمزًا للحياة. ويؤدي هذا التضاد البلاغي إلى خلق مفارقة دلالية تكثف الإحساس بالمأساة (الجرجاني د.ت). ومن منظور ثقافي يمكن قراءة هذه الصورة بوصفها تمثيلًا لعلاقة الإنسان بالذاكرة التاريخية؛ إذ يتحول القبر إلى استعارة

لذاكرة الماضي التي تظل حاضرة في الوجدان الجمعي رغم مرور الزمن. ويتجلى الصراع بين المعرفة والسلطة في العبارة:

(عبود٢٠١٨ ،ص١٣٤).»لم يكن للشعر مكان في بلاطٍ لا يسمع إلا صليل السيوف«

تعتمد هذه العبارة على مقابلة دلالية بين الشعر والسيوف؛ فالشعر يمثل خطاب المعرفة والثقافة، بينما تمثل السيوف خطاب القوة والعنف. ويكشف هذا التضاد البلاغي عن نسق ثقافي يفضّل القوة السياسية على المعرفة، الأمر الذي يؤدي إلى تهميش دور المثقف داخل المجتمع. وبهذا تتحول البلاغة إلى أداة للكشف عن بنية الهيمنة التي تفرضها السلطة. كما تتجلى بلاغة المكان في قول السرد (الجرجاني د.ت)

.»كانت بغداد تضيق به كلما اقترب من أبواب السلطة«

تعتمد هذه العبارة على استعارة مكانية تُمنح فيها المدينة صفات إنسانية توحي بالضيق والاختناق. ومن خلال هذه الصورة البلاغية يتحول المكان إلى فضاء رمزي يعكس طبيعة السلطة المسيطرة. فالمكان هنا لا يظهر بوصفه حيّزًا جغرافيًا فحسب، بل بوصفه بنية ثقافية تعكس هيمنة السلطة على المجال الاجتماعي والثقافي (الجرجاني د.ت).

وفي سياق آخر يكشف النص آلية توظيف الخطاب الديني في الصراع السياسي من خلال القول:

(عبود٢٠١٨ ،ص١٧٨)»لم يكن الناس يتقاتلون من أجل العقيدة بقدر ما كانوا يتقاتلون باسمها«

تعتمد هذه العبارة على مفارقة بلاغية تفصل بين جوهر العقيدة واستعمالها السياسي. فالنص يميز بين القتال من أجل الإيمان الحقيقي والقتال الذي يتم تحت شعار العقيدة

لتحقيق مصالح سياسية. ومن خلال هذه المفارقة يفضح النص آلية توظيف الخطاب الديني في خدمة الصراع السلطوي، كاشفًا عن النسق الثقافي الذي يربط بين الخطاب الديني والهيمنة السياسية (اركون ١٩٩٠).

كما تعكس الرواية تجربة الغربة بوصفها حالة ثقافية لا جغرافية فقط، كما في العبارة: **. (عبود٢٠١٨، ص٢٠١)»لم تكن الغربة ابتعادًا عن المكان بقدر ما كانت ابتعادًا عن المعنى«**

تحول هذه الجملة مفهوم الغربة من معنى مكاني إلى معنى وجودي يعبر عن فقدان الانتماء داخل مجتمع تحكمه السلطة. فالغربة هنا ليست مجرد انتقال جغرافي، بل تعبير عن أزمة المثقف الذي يجد نفسه خارج المجال الذي تسيطر عليه السلطة السياسية.

إن هذه البنية البلاغية والسردية تسهم في كشف الأنساق الثقافية التي تحكم العلاقة بين المعرفة والسلطة داخل الرواية. فالصور البلاغية والتشبيهات والمفارقات والاستعارات لا تمثل عناصر جمالية فحسب، بل تعمل بوصفها أدوات تحليلية تكشف طبيعة الهيمنة التي تمارسها السلطة داخل المجتمع.

وعليه يمكن القول إن الرواية تقدم قراءة نقدية للتاريخ من خلال تفكيك البنية الثقافية التي أنتجت علاقات القوة بين المثقف والسلطة. فالتاريخ في النص لا يظهر بوصفه ماضيًا منقطعًا، بل بوصفه مرآة تكشف استمرار أنماط الهيمنة والصراع في الواقع الثقافي والاجتماعي.

النتائج التحليلية

تؤكد الدراسة أن النزوع التاريخي في رواية تغريبة ابن زريق البغدادي الأخيرة ليس نزوعًا جماليًا فحسب، بل هو مشروع فكري يهدف إلى مساءلة التاريخ وإعادة كتابته من منظور ثقافي معاصر .فالتاريخ في الرواية لا يُقدَّم كوقائع متسلسلة، بل يُعاد بناؤه بوصفه خطابًا نقديًا يُفكّك علاقات القوة بين المثقف والسلطة، وبين الفرد والمجتمع) عبود،.(2018

أظهر التحليل أن سلام عبود استثمر التاريخ العباسي بوصفه مرآةً للواقع العراقي، إذ استحضر من خلاله الصراعات المذهبية والسياسية التي ما زالت فاعلة في الحاضر (الحيدري،2019)

.فالتاريخ هنا ليس زمنًا منقطعًا، بل امتدادٌ متجددٌ للوعي الجمعي، تُستعاد أحداثه لتفسير واقعٍ مأزومٍ يتكرر بأشكال مختلفة) العبيدي،.(2016

كما بيّنت الدراسة أن الروائي يوظف تقنيات السرد والحوار والرمز لإبراز العلاقة بين النص والنسق الثقافي، بحيث يتحول السرد إلى وسيلة لاكتشاف ما تخفيه الخطابات الرسمية .وبهذا يصبح الفعل الروائي فعلًا نقديًا يكشف الأنساق المضمرة في التاريخ والمجتمع) الجاسم،(2017

وتتضح قيمة النزوع التاريخي في الرواية من خلال قدرته على تحويل الماضي إلى أداة للوعي، إذ يكشف سلام عبود عبر شخصياته عن عجز السلطة عن احتواء الإنسان، وعن نزوع الفرد المستمر نحو الحرية رغم القهر والاغتراب) الشمري، .(2014فالعودة إلى الماضي عنده ليست حنينًا، بل بحثًا عن جذور الانكسار الذي يعيشه الحاضر) الموسوي،.(2020

من هنا، يظهر أن سلام عبود ينتمي إلى تيار من الكتّاب الذين يعيدون كتابة التاريخ من الهامش، لا من المركز .فهو لا يتعامل مع التاريخ بوصفه سجلًا للحكام، بل بوصفه حكاية للمهمّشين والمقموعين الذين صمت عنهم التاريخ الرسمي) حسن، 2015).

وبذلك تتكامل رؤية عبود مع طرح لندا هتشن (Hutcheon, 1988) التي تؤكد أن السرد ما بعد الحداثي يوظف التاريخ لتقويض فكرة الحقيقة المطلقة، ومع رؤية إدوارد سعيد (Said, 1994) التي ترى أن الثقافة لا تنفصل عن علاقات الهيمنة .فالرواية تمثل خطابًا مقاومًا لإعادة إنتاج الماضي وفق منظور السلطة، وتقدّم تأويلاً جديدًا للحاضر والمستقبل.

الخاتمة:

تكشف هذه الدراسة أن استدعاء التاريخ في رواية تغريبة ابن زريق البغدادي الأخيرة هو فعل معرفي ونقدي في آنٍ واحد، يعيد بناء العلاقة بين الذاكرة والهوية .فسلام عبود يوظف الماضي للكشف عن تناقضات الحاضر، ويحوّل التاريخ من سجلٍّ للأحداث إلى مساحة للحوار مع الذات والواقع.

إنّ توظيف الشخصيات والأحداث التاريخية داخل النص السردي أسهم في تحويل الرواية إلى نموذج لوعيٍ ثقافيٍ نقديٍ يربط بين التجربة الفردية والمصير الجمعي، في ضوء منهج النقد الثقافي الذي يركّز على كشف الأنساق الفكرية والاجتماعية المضمرة في الخطاب الأدبي.

ومن خلال تحليل البنية السردية والرمزية في الرواية، تبيّن أنّ النزوع التاريخي عند عبود ليس إعادة إنتاج للتراث، بل عملية تفكيك وإعادة بناء تستهدف مساءلة السلطة وإحياء الوعي بالذات.

وهكذا تتجاوز الرواية وظيفة الحكي لتصبح نصًا مفتوحًا على التأويل، يعيد صياغة التاريخ في ضوء الحاضر، ويفتح أفقًا للوعي الإنساني الحر.

وبذلك يقدّم هذا البحث إسهامًا نقديًا في قراءة التوظيف التاريخي في السرد العراقي الحديث، ويبرهن على أن استحضار الماضي هو في جوهره مشروع لاستعادة الإنسان.

قائمة المراجع

- عبود، س .(2018) .تغريبة ابن زريق البغدادي الأخيرة .بغداد :دار المدى للنشر والتوزيع.

العبيدي، ر .(2016) .التاريخ والهوية في الرواية العربية المعاصرة .بيروت :المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

- الحيدري، ن .(2019) .تمثلات الماضي في الرواية العراقية بعد .2003 بغداد :دار الشؤون الثقافية العامة.
- حسن، ع" .(2015) .التاريخي والروائي في السرد العراقي المعاصر ."مجلة الأقلام العراقية،(2)4 45–66.،

الجاسم، ك .(2017) .النقد الثقافي :المفهوم والممارسة في الأدب العربي المعاصر .عمّان :دار كنوز المعرفة.

- الموسوي، م" .(2020) .تحولات الوعي التاريخي في الرواية العربية ."مجلة دراسات أدبية وثقافية،(3)12 ،87–105.

- الشمري، أ .(2014) .الخطاب السردي بين التاريخي والتخييلي .دمشق :دار الفكر المعاصر.

Said, E. (1994). Culture and Imperialism. New York: Vintage Books.
Hutcheon, L. (1988). A Poetics of Postmodernism: History, Theory, Fiction. New York: Routledge.

- White, H. (1987). The Content of the Form: Narrative Discourse and Historical Representation. Baltimore: Johns Hopkins University Press.
- الغذامي، عبد الله. (٢٠٠٠). النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- فوكو، ميشيل. (١٩٩٠). نظام الخطاب. ترجمة أحمد السطاتي. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.
- غرامشي، أنطونيو. (١٩٧١). دفاتر السجن. ترجمة فواز طرابلسي. بيروت: دار الطليعة.
- يقطين، سعيد. (١٩٨٩). تحليل الخطاب الروائي. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- أركون، محمد. (١٩٩٠). نقد العقل الإسلامي. بيروت: دار الطليعة.

References

- Aboud, S. (2018). The Last Exile of Ibn Zuraik Al-Baghdadi. Baghdad: Al-Mada Publishing House.
- Al-Obaidi, R. (2016). History and Identity in the Contemporary Arabic Novel. Beirut: Arab Institution for Studies and Publishing.
- Al-Haidari, N. (2019). Representations of the Past in the Iraqi Novel after 2003. Baghdad: General Directorate of Cultural Affairs.
- Hassan, A. (2015). Historical and Novelistic Dimensions in Contemporary Iraqi Narrative. Al-Aqlam Journal, 4(2), 45–66.
- Al-Jassim, K. (2017). Cultural Criticism: Concept and Practice in Contemporary Arabic Literature. Amman: Kunooz Al-Ma’rifa.
- Al-Mousawi, M. (2020). Transformations of Historical Consciousness in the Arabic Novel. Literary and Cultural Studies Journal, 12(3), 87–105.
- Al-Shammari, A. (2014). Narrative Discourse between History and Fiction. Damascus: Dar Al-Fikr.
- Said, E. (1994). Culture and Imperialism. New York: Vintage Books.
- Hutcheon, L. (1988). A Poetics of Postmodernism: History, Theory, Fiction. New York: Routledge.
- White, H. (1987). The Content of the Form: Narrative Discourse and Historical Representation. Baltimore: Johns Hopkins University Press.
- Al-Ghadhami, A. (2000). Cultural Criticism: Reading Cultural Patterns in Arabic Culture. Casablanca: Arab Cultural Center.
- Foucault, M. (1990). The Order of Discourse. Trans. Ahmed Al-Sattati. Casablanca: Africa East.
- Gramsci, A. (1971). Prison Notebooks. Beirut: Dar Al-Tali'a.
- Yaqtin, S. (1989). Analysis of Narrative Discourse. Casablanca: Arab Cultural Center.
- Arkoun, M. (1990). Critique of Islamic Reason. Beirut: Dar Al-Tali'a.
- Al-Obaidi, R. (2016). History and Identity in the Contemporary Arabic Novel. Beirut.
- Al-Haidari, N. (2019). Representations of the Past in the Iraqi Novel after 2003. Baghdad.

- Hutcheon, L. (1988). A Poetics of Postmodernism: History, Theory, Fiction. Routledge.
- Said, E. (1994). Culture and Imperialism. Vintage Books.
- Aboud, S. (2018). The Last Exile of Ibn Zuraik Al-Baghdadi. Baghdad: Al-Mada Publishing House.

- Hutcheon, L. (1988). A Poetics of Postmodernism: History, Theory, Fiction. Routledge.
- Said, E. (1994). Culture and Imperialism. Vintage Books.

- White, H. (1987). The Content of the Form: Narrative Discourse and Historical Representation. Johns Hopkins University Press.